قصة مصرية

سعاد

(قصة حقيقية لا أثر فيها للخيال)

وكان لزاما عليه أن يعرفها بعد اختلاط أسرتيها من جهة ، ومن ناحية أخرى لقرابتهما ، والقربى أمر كثيرا ما يركن الشاب اليه و يتخذه سببا يستند اليه و ينتحل المعاذير لذلك مهما كلفه الأمر .

والتعليم إحدى وسائل التعارف الكثيرة ، فقد يربط بين المتنافرين ، و يوفق بين المتخاصمين و يجمع بين البعيدين ، والكتابة الاخوية نتيجة لازمة لذلك .

زادت المراسلات وزاد التعارف ، وما لا يكون بالكلام يكون بالاقلام ، ومالا يؤدى بالاشارة يؤدى بالعبارة .

وكثيرا ما يعجز المرء عن إبانة الغرض فى كثير من مواقفه ، ولكنه قد يتغلب عليها كتابة . فيستطيع أن يملك ناصية الحال بالكتابة ، ولكنه لا يستطيعها فى المحادثة الشفوية ولدى الانسان الوقت الكافي الذي يستطيع أن يفكر فيه أو يجمع المعلومات .

والكتابة بين متعاشقين يعرفانها أمر لابد منه لما لها من المزايا الكثيرة . فكان أن تزاورا بعد أن نزعا التقاليد المصرية المتبعة فى مثل هذه المسألة .

ومنع اختلاط شاب متعلم أو غيره فى الأسرة بلغ مبلغ الرجال وأخرى بلغت من السن ما يؤهلها إلى أن تكون زوجة ـ عادة قديمة لها محاسن ومظاهر لا يحسن أن تتبع فى هذه الايام ، فقد أصبحنا والحمد لله لا يؤدي الاختلاط الا إلى سمو فى الاخلاق دونه ذلك القيد الذى ما زلنا نرسف فيه فى كثير من المدن ، فما علينا الآن الا أن نترك هذه العادة وراءنا ونرمى بالرياء عرض الحائط لأنه خيال زائل .

تزاورا لداع ولغيره ، وكان التزاور فى أول أمره صعبا أو فى غير المقدور بين العاشقين . ولكن سرعان ما هيأت لهما الظروف الاعتكاف عن الأسرة حينا ، وحينا آخر الى التلاقي خارج الدار ، وكانا يقضيان الوقت الطويل في حشمة و وقار يرفرف عليهما علم لحمته القربى وسداه الطهارة والعفاف ، فيتكلمان فى الموضوعات الطلية الشيقة ، ولا يجتمعان الا فى الأماكن التى تبعث السرور والراحة فى النفس .

كانا يجتمعان بعد مضي أسبوع غالبا ، و ربما لا يرى كل منهما صاحبه طوال شهر كامل لمحافظتها على العادات القديمة من جهة ، ولأن يقاد النار فى قلب عاشقها من جهة ، فكانت لا ترحمه

فتطيل المدة إلى أكثر من هذا ، فيضطر المسكين إلى أن يذهب اليها وربما بخلت بالظهور عليه ، فيرجع الى بيته وقد ملأ الأسى كل جوانحه فلا يجد الا كتابه ينتظره.

وكان الحب الذى ملأ جوانح الاثنين . . . وكان ظرف جمع بينهما كأن سلطان الحب أراد أن يجمع بينهما، وشاءت الأقدار أن تكتب صفحة جديدة ، فكتبت أول سطر ، وكان من نور ، قرأه أفراد الأسرة جميعا ، ولكن سعاد هى التى كتبت أول حرف فيه .

* * *

استمرت الحال طويلا حتى بلغت أشدها فى أخريات دراسة المسكين، وعلقت الفتاة آمالها به ، وظنت أنه أصبح فتاها، وزعم هو بدوره ما زعمت ، فتركت المسألة جانبا من غير تفكير .

وذات يوم جلسا فى إحدى الحدائق العامة ، فحدث بينهما جدل فى مشكلة الحياة العامة وهى « الزواج » ولكنهما لم ينتهيا إلا على الرأى الذى ينتهى إليه كل عشيقين جديدين وهو الاقتران ، بعد أن يعد الفتى عدته ، ثم انصرفا وهما زوجان منتظران .

زادت جلسات الفتى اليها، وخاصة فى أيام الاجازات المدرسية، فأزكى ذلك نار حبهما ولكنه حب دو سياج من الوقار والعظمة ، فلم يتعد الجلسات المحترمة، والمناقشات المفيدة فى الموضوعات العامة، وكان كما يسميه الغراميون « حبا طاهرا لغته الكلمات العميقة والآمال المنتظرة »

وجاءت الأجازة الصيفية ، وكان لزاما أن تكون الى جانبه ، فكثيرا يقرءان صفحات غرامهما طويلا، و ينتظران آمالهما بعين الخيال والأمل ، ولكنهما يجهلان ما طوى لهما القدر ، وكان ثمة وداع مؤثر أودع كل منهما فى نفس صاحبه آماله الفياضة الكثيرة ، وحبه الكامن الدفين ، وافترقا أملا فى اللقاء .

فكر كل فى صاحبه أكثر من قبل، و بعدت بينهما الشقة ، وأصبح من المتعذر أن يعرف أحدهما عن الآخر شيئا ، الا أن هذا انتقل من بلدة كذا الى بلدة كذا ، وما فى القلب محفوظ لا يتعداه . . .

وفوجئ المسكين بزفاف فتاته التى علق عليها آماله الى آخر ، فبهت للخبر وظل لا يصدقه أياما وشهورا حتى حققته الحوادث وصدقه الحس ، وعرف أن الحق أبلج وأن الامر قد انتهى .

عض المسكين أصبعه أسفا وندامة وحسرة على فرصته التى أفلتت، وعرف أنه تهاون فى حق صاحبته ، ولكن الى أى مدى هذا التهاون ؟

لم يتعد أكثر من أنه لم يسع إلى السؤال عنها ، ولم يعمل لداعى غرامه وحكم عقله فى أمره كى يحقق آماله معها .

نكص جواد حبهما ، ونكست راية غرامهما ، وأفل نجم سعدهما ، وذبلت زهرة عشقهما ، وحل الخصام محل الوئام ، والكراهة مكان المحبة ، والبغض محل الحب .

بات الفتى يذكر لياليه الماضية معها بعين الأسى والاسف ، ويبكي أيامه الخوال بعين كسيرة وقلب مكلوم .

مضت الايام سراعا ، وغصن المسكين يذوى ، ولونه يأخذ في الشحوب ، حتى ضاقت الارض فى وجهه ، وطلب الحياة فى بلدة أخرى .

كل هذا وخيالها لا يبرح عينه ، وشخصها لا يذهب من أمامه ، حتى اعترف أمام ضميره بأنه لا يزال يذكرها ويندب أيامها .

وبعد بضعة شهور على قرانها ، وبعد أن ذاق كأس حبه مريرة ، وشرب الثمالة من هذا العشق الدفين ، أرسلت المسكينة اليه تبثه شوقها وتطلب إليه الصفح والمغفرة عن تعجلها فى زفافها وتفهمه أن الذنب ذنب أهلها ، وأنها لم تنس أيامه ، وأنها ماتزالت تذرف العبرات وتندب حظها وتتضرع إليه أن يمنحها مقابلة قصيرة كي تفصل له الحقيقة ، وختمت الرسالة بهذه الكلمات المستقطعة .

. . . . . وآخر كلمات أبعث بها إليك ياعزيزى ، هى أن أطلب إليك نسيان الماضى — وإن كنت لا أنساه — وأن تغفر لي خطأى ، وأنت أولى من أوجه إليه هذا ، وكفانى من قبولك ، خيالك الذى يعاودنى ويملك على جميع مشاعرى ، وأستميحك العفو أولا وأخيرا . . .

ولو منحتني زيارة يسيرة في غرفتنا المعهودة لضممت إلي كثير مكرماتك مكرمة جديدة والسلام

سعاد

* * *

فكان رد المسكين عليها طى الرسالة ، التى أحيت ميت غرامه ، وأوقدت نارا أخمدت زمنا ، وبعثت من جديد الحياة إلى جسم كان هذا دواؤه ، وبعد أيام قضاها فى تفكير عميق كتب إليها :

عزيزتى !

دهشت لرسالتك كثيرا ، وبهرنى رجوعك إلى الحق ، بعد أن مكثت أشهرا ظننت فيها أنك نسيتنى ، ولكني أستشف من خلال كلماتك أنك على العهد باقية ، فلك شكرى ياعزيزتى على ما أبديت من عطف ، وأطلب إليك بحق حبنا الطاهر ، وبحق آمالنا التي لم تتحقق ، أن تنسى هذا العهد ولا تذكريه ، وأن تكوني عند حسن ظنى بك ، وأن تمنحى زوجك من العناية ما كنت تترسمين فى الزوجية الحقة ، وأن تعطيه أكبر قسط من

عنايتك ونظرك . وأما أنا فكفاني منك أن تذكريني في فراغك ، وتضمي إلى علمك أني لا أقدر على الحضور ومصادمتي بك الصدمة الثانية ﴾ محمد

* * *

تسلمت المسكينة رسالته ، فبكت ماشاء الله أن تفعل ، وحاولت أن تصل إلى عزيزها بأية طريقة ، مادام في هذا إرضاء لضميرها ، وصفح صاحبها ، ولأيقافه على الحقيقة .

وحاولت الوصول إلى صاحبها أو إلى إخباره فلم تتمكن ، وما زالت المسكينة في بكائها وتحيبها فلا هي قادرة على ارضاء ضميرها ، ولاهي حاصلة على صفح صاحبها .

ولكنها لن تصل إلى أمنيتها ، لأن صاحبها قد عرف أن المسألة كانت بيدها ، وأنه كان في مقدورها الانتظار حتى يحظيا بأمانيهما ، وأنه لاقيمة لرأي غيرها مادامت قد ملكت على عزيزها قياده في أول الأمر ، ومادامت متأكدة من عهده ، وأخيرا قد وقر في نفسه أن المرأة هي المرأة أولا وأخيرا ، ليس لها رأي يعتد به .

ثم مكث المسكين في حيرة ، و بعد أيام جلس إلى مكتبه ليسطر إليها ما يخفف ألم بعاده ، ولكنه لم ينته من خطابه .

* * *

وأخيرا وجد أهله هذا القلم بيده وهو مكب على مكتبه ولاحراك به ، وكان آخر ما كتب في حياته « عزيزتي سعاد » وذهب ميكيا على شبابه بعد أن شقي بحبه ، و بعد ان أشقى فتاته بجانبه ، ومازالت المسكينة طريحة الفراش تعاني آلمين : ألم حبها ووفائها لصديقها ، وألم الموت وقد أورثها حزنا طويلا مازالت ترسف في قيده .

فاللهم أغدق كثير صبرك على فتاتك ، وألهمها الحزم إنك على ماتشاء قدير .

هذه قصة حقيقية لاأثر فيها للخيال مطلقا ، ذكرتها كما حدثت ، وقد فاتني أن أذكر أن عدم زيارة المسكين لها هو المحافظة عليها من اللهفة ، وعلى سمعتها من أن يلحقها سوء ، وعدم ازعاج زوجها ، وخوف القيل والقال ، وما منعها إلا لطهارة قلبه من ناحيتها ، فقد كان يحمل لها بين جوانحه حبا دفينا ﴾

« رمز »

الاعداد السابقة

تطلب الاعداد السابقة من الادارة مباشرة

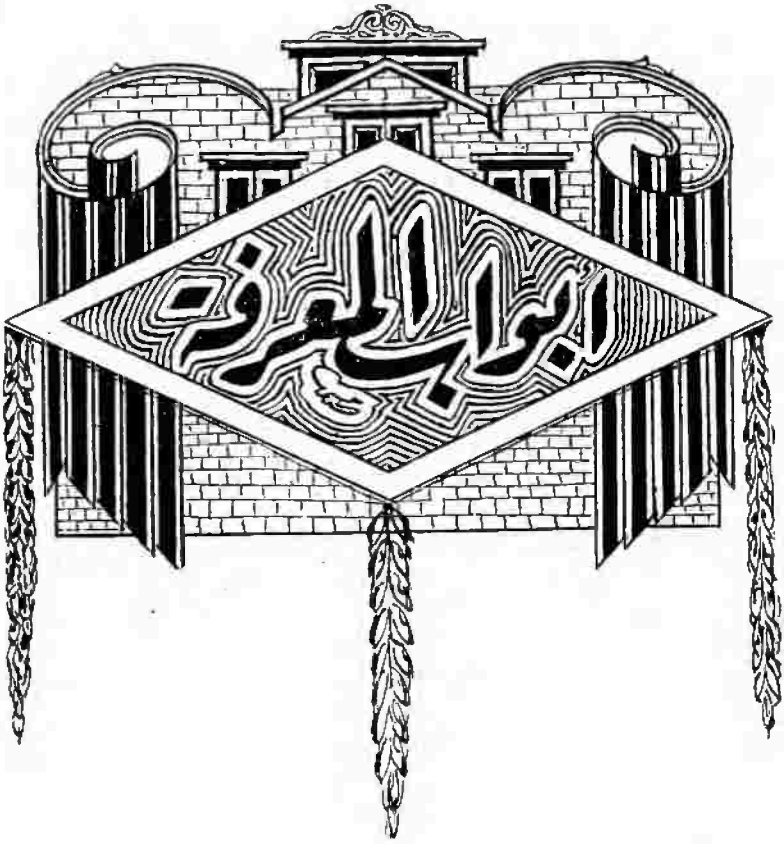
أبواب المعرفة